

مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (تأسيسه، مراجعاته، أهدافه)

Theater of the Association of Algerian Muslim Scholars
(establishment, references, objectives)

عبد الغني لبيبات¹

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوغريج

abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

تاریخ الوصوّل 2023/12/23 القبول 2023/01/29 النشر على الخط 2023/03/15

Received 23/12/2022 Accepted 29/01/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم صورة عن مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، متتبعة تطويره وفق مسار كرونولوجي، منذ صدور أول عمل مسرحي لأحد أعلام الجمعية (محمد العيد آل خليفة في مسرحيته الشعرية بلال بن رياح) وصولاً إلى تطور واتساع وثراء تجربة هذا المسرح، وانهاء بتوقفه بعد انطلاق مسرح النضال التابع لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، كما تقف الدراسة بشيء من التفصيل عند أهم المراجعات التي استند عليها هذا المسرح متمثلة في المرجع التاريخي بمصادره الثلاث: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغاربي، والمصدر الأجنبي، يضاف إلى ذلك المرجع الاجتماعي الذي عمد من خلاله مسرحيو الجمعية إلى التصدي لمختلف الآفات التي كانت تنخر المجتمع الجزائري في الصّفيف، فكانت هذه التجارب بمثابة الدّواء مثل تلك الأدواء الاجتماعية، كما أبرزت دراستنا أهم الأهداف التي رامها هذا المسرح، والتي كانت في جملتها تسعى إلى إحياء الشخصية الجزائرية ببعديها العربي والإسلامي، وإيقاظ الشّعور القومي العربي باستلهام شخصيات تاريخية، إضافة إلى الحافظة على مقومات الأمة.

الكلمات المفتاحية: مسرح، مراجعات، بعد تاريخي، بعد إصلاحي، بعد تربوي.

Abstract:

This study seeks to provide an image of the Algerian Muslim Scholars Association theater, Tracing its evolution according to a chronological path, Since the issuance of the first theatrical work of one of the association's flags «Muhammad Al-Eid Al Khalifa in his poetic play Bilal bin Rabah» Down to the development, breadth and richness of the experiences of this theater, And ending with its cessation after the start of the struggle theater of the Algerian National Liberation Front, The study also stands in some detail at the most important references on which this theater was based Represented in the historical reference with its three sources: the Arab-Islamic source, the Maghreb source, and the foreign source, In addition to that, the social reference through which the playwrights of the association sought to address the various pests that were gnawing at the heart of Algerian society, These experiences were the medicine for such social ills, Our study also highlighted the most important goals pursued by this theater, Which, in its entirety, aimed at reviving the Algerian personality in its Arab and Islamic dimensions, And awakening the Arab national feeling by drawing inspiration from historical figures, In addition to preserving the nation's foundations.

Keywords: Theatre, References, Historical dimension, Reformist dimension, Educational dimension.

1. مقدمة:

كان مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حلقة مهمة في مسار ظهور وتطور المسرح الجزائري بشكل عام، غير أنّ لهذا المسرح خصوصياته وفرادته، التي ميزته منذ ظهور التجارب الأولى له، حيث ولد هذا المسرح إصلاحياً تربوياً يتماشى مع الأهداف والمرامي التي سطّرها جمعية العلماء المسلمين منذ ظهورها، وبقي كذلك مسرحاً تربوياً يقوم بتحضير الفرد الجزائري معنوياً والسموّ بكيانه وتخليصه من الشوائب حتّى يصبح مهياً لطرد المحتلّ الفرنسي من أرضه.

ولأنّه لا نكاد نثر على دراسة شاملة تخصّصت في هذا المسرح أو قامت بالوقوف عند نماذجه الرائدة، أو نفض الغبار عن تجاربه الكثيرة المدفونة إلّا النّزير اليسير، فإنّا سعينا من خلال هذه الدراسة إلى محاولة التعريف بهذا المسرح وتتبع المسار الزمني لتطوره، مع ذكر العديد من أعماله وتسمية نماذجه، متطلّعين إلى مرجعياته وأهدافه بشيء من التفصيل، لعلّ دراستنا تفتح أبواباً موصدة وتلفت النّظر إلى أعمال رائدة في زمانها جديرة بالالتفات إليها في زماننا.

اعتمدنا في دراستنا هذه التي جاءت نظرية منهجاً استقصائياً تاريخياً حاولنا فيه تتبع أُوليات هذا المسرح والانتقال زمنياً بين التجارب من السنة الأولى لظهوره وإلى غاية توقفه ليفسح المجال إلى نوع جديد هو مسرح النّضال الذي قادته الحركة الوطنية الجزائرية، وقد احتوى بحثنا ثلاث عناصر جاءت كالتالي: التأسيس، المرجعيات (أ: المرجع التاريخي، وضمّ ثلاثة مصادر هي: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغربي، المصدر الأجنبي، ب: المرجع الاجتماعي)، الأهداف.

اتكّلت دراستنا على جملة من المصادر والمراجع يأتي في مقدمتها كتاب: "تاريخ الجزائر الثقافي" للدكتور أبي القاسم سعد الله في جزءه العاشر، إضافة إلى أطروحة دكتوراه بعنوان: "توظيف التّراث في المسرح الجزائري" للدكتور أحسن تليلاني، كما استعننا بمقال مهمّ للدكتور دين الهناني أحمد بعنوان: "المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقاربة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحياً".

ليطرح هذا البحث جملة تساؤلات:

- كيف تمّ تأسيس مسرح خاص بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟ وما طبيعته؟
- ما هي مرجعيات هذا المسرح ومصادره التي استند إليها؟
- ما هي أهداف ومرامي هذا المسرح؟

2. تأسيس مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

اصطبغ مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ بداياته بصبغة إصلاحية، فكان مسرحاً مقاوماً في لغته وأفكاره ومراميه، وعلى الرغم من أنّه كان متفرّداً نوعاً ما في غایاته ومضمونه وطريقة أدائه، إلّا أنّه في شكله العام كان مثل المسرح الجزائري عموماً في أولياته، حيث "تبّى في شكله ومح takoah قضيّة البحث عن الذّات الجزائرية، مواجهة هذا الآخر الذي سعى إلى اجتثاثها وتغييبها، وضمن إطار البحث عن الذّات الجزائرية من أجل استعادتها".¹

¹ أحسن تليلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، أطروحة دكتوراه، جامعة مونتوري – قسطنطينة –، 2009/2010، ص 39.

ترجع أوليات مسرح الجمعية إلى سنة 1938 حين أَلْفَ محمد العيد آل خليفة مسرحيته الشعرية "بلال بن رياح" وتعتبر هذه المسرحية "النواة الأولى للمسرحية التاريخية التي استلهمت التاريخ العربي الإسلامي، كما ظهر من خلال عنوانها، وهي محاولة ترمي إلى تحسيد الموقف البطولي الذي تحلى به الصّحابي بلال -رضي الله عنه- أمّا جلاديه".¹

وقد نالت هذه المسرحية اهتماماً كبيراً، لأنّها شكلت محطةً مفصليّةً حاسمةً في مسار المسرح الجزائري، ولقيت إقبالاً جماهيرياً كبيراً عليها، فهي برأي الدكتور أبي العيد دودو تعتبر "نقطة تحول في تاريخ المسرح الجزائري، لا لأنّها أول عمل شعري متكملاً في هذا المجال، وإنّما لأنّها عبرت عن اتجاه جديد تحلى في مضمونها التاريخي".²

وبعد هذه المسرحية الرائدة شهدت الحركة المسرحية في الجزائر ركوداً بسبب الحرب العالمية الثانية وتداعياتها المختلفة، لكنّها سرعان ما عادت من جديد واستأنفت نشاطها بقوّةٍ إذ "افتتح عالم المسرح عدد كبير من الأدباء الجزائريين الذين لم يكونوا من المتخصصين فيه، حيث بلغ عددهم قرابة المائة كاتب، قدّموا حوالي مائة واثني عشر مسرحية، يغلب على كتابتهم الطابع الإصلاحي المنبع من مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما أنّ جلّها يتّسم باسمةٍ تاريخية، حيث يلقي المؤلّف الضوء على فترة تاريخية أو يستدعي شخصية مشهورة من التراث التاريخي، فلم يكن الاختيار عفوياً، بل جاء لغاية سياسية إصلاحية، تخدم مصلحة الجزائر أولاً، ومبادئ الحركة الإصلاحية بالدرجة الثانية".³

ومن بين أهم رجال الإصلاح الذين حازوا قصب السبق في التأليف المسرحي ذي الطابع الإصلاحي تحت جناح الجمعية نجد الأديب محمد الصالح رمضان، إذ جاءت مسرحيته "الناشرة المهاجرة" مباشرةً بعد فترة الركود التي عرفتها الساحة المسرحية، أَلْفَها سنة 1947، ويدرك مرتأض أَلْفَها: "مقللت لأول مرة بمدرسة دار الحديث بتلمسان، في العقد الخامس من القرن العشرين، أمّا طبعها فقد تمّ سنة 1949 بالمدينة نفسها".⁴

وتبدو من عنوانها الغاية التربوية الإصلاحية مؤلفها، وهي مسرحية تتّألف من "سبعة مشاهد متسلسلة، تدور كلّها في مكة المكرمة، وتشخص بعض المواقف المتصلة بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، وموقف المشركين من هذه الهجرة، التي كانت نقلة نوعية في مسار الدّعوة الحمدية".⁵

وهي مسرحية تنطوي على قيم تربوية ودينية بارزة شأنها في ذلك شأن بقية مسرحيات رجال الجمعية، وبما أَلْفَها كانت موجّهة للأطفال الصغار، فإنّ غاية الكاتب من ورائها هو "إطلاعهم على بعض الجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي، وتعليمهم أهمية التضحية في سبيل الدفاع عن المبادئ العظيمة، والعقيدة، والصّبر على الأذى، وتحمّله من أجل تبليغ الرّسالة".⁶

¹ دين المنهاني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقاربة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيّاً، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ألمانيا، العدد 4، جانفي 2019، ص 267.

² المرجع نفسه، ص 267. نقلًا عن: أبي العيد دودو، مجلة القبس الجزائرية، ماي 1969، ص 97.

³ المرجع نفسه، ص 267. نقلًا عن: أمحمد بيوس، المسرح الجزائري 1926-1989، 1989، ص 61.

⁴ أحسن تيليان، توظيف التراث في المسرح الجزائري، ص 125، نقلًا عن: عبد الملك مرتأض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، 1954، ص 226.

⁵ المرجع نفسه، ص 125.

⁶ بن داود أحمد، دور المسرح الجزائري في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي 1926-1954، رسالة ماجистير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2008-2009، ص 29.

فمسرح الجمعية منذ بدايته بحاته المسرحيات الرائدة كان مصطفغاً بالصيغة الإصلاحية، التي راح يستنبتها في مدارس الجمعية، فهو مسرح مدرسي إصلاحي بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من معنى، يحاول قد الإمكان أن يحقق الغايات الكبرى التي سطّرها رجال الجمعية في الجانب الشعري والأدبي، إيماناً منهم بقوّة وجبروت الكلمة المعبرة في الدفاع عن كيان الأمة، لاسيما وإن كانت هاته الكلمة مدوّية على خشبة المسرح، مقتنة بالأداء والفعل المسرحي، ولذلك راحت المسرحيات تتولى الواحدة تلو الأخرى، فوجدنا محمد الصالح رمضان يضيف في نفس السنة 1947 - مسرحية أخرى "استمدّ أحداثها من تاريخ شاعرة مخضرة - الخنساء - كما أنتا بحد عرض آخر ألهه "أحمد رضا حوحو" في مدينة قسنطينة، استمدّ أحداثه من كتاب "ألف ليلة وليلة" بعنوان "هارون الرشيد وأبو الحسن التميمي" سنة 1947¹.

وعموماً فقد عرفت "الفترة ما بين 1948-1950" نشاطاً مسرحياً مكثفاً يخضع لمقاييس الحركة الإصلاحية (اللغة العربية كأدلة، الأحداث والشخصيات التاريخية كمضمون) نبدأها بالعرضين اللذين ألفهما "محمد الصالح رمضان" في بداية 1948 وهو "حليمة مرضعة النبي" و"طارق بن زياد" لكن النصين مفقودان، كما ذكر الباحث عبد الملك مرتاض، ولم يبق منهما إلا مشهد واحد من المسرحية الأولى...².

و بالحديث عن مقاييس الحركة الإصلاحية في ميدان التأليف المسرحي فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى كلام "أرليت روث" الذي بين من خلاله أنّ "رجال الإصلاح وضعوا شرطين، لجعل المسرح من وسائل الإصلاح، بعد أن تحّرروا نفسياً من قيود شّتّي، ولا سيما التي كانت تعدّ المسرح من الحرف المنحطّة، الشرط الأوّل: هو استعمال اللغة العربية الفصحى في العروض والحوارات المسرحية. والشرط الثاني: هو أن يعبر المسرح عن تاريخ الأمة الإسلامية ويُشيد ببطولات عظمائها".³

ففي سنة 1948 كتب أحمد توفيق المديني مسرحية تاريخية بعنوان "حنبل" عرفت بجاحاً كبيراً، حيث عرضت في الجزائر العاصمة في السنة نفسها، وأعيد عرضها عدة مرات منها عرض للنساء وحدهن، بالإضافة إلى "توفيق المديني" جرب المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي" حظه في كتابة المسرحية التاريخية، فألف مسرحيتين "المولد - المحرّة ، تدوران حول سيرة النبي - صلّى الله عليه وسلم يوم مولده ويوم هجرته. طبعت الأولى سنة 1949 ، وقادت بتمثيلها فرقة "محى الدين باشتريزي" سنة 1951.⁴

أمّا إذا انتقلنا إلى الشرق الجزائري فإنّا سنجد أحمد رضا حوحو الذي مارس المسرح كتابة وتمثيلاً وكان ذلك مبكراً، فقد أقدم منذ سنة 1939 على كتابة أول محاولة المسرحية فنشر في نفس الجلة - المنهل السعودية - وعلى التوالي "أدباء المظهر" و "صناعة البرامكة" و "الواهم" .⁵

و في هذه المرحلة كان توظيف المسرحية وإبداعها براجماتياً من طرف أعلام الجمعية، ذلك أكّم رسموا أهدافاً ومشاريع إيقاظ ووعية تربوية، جعلوا من المسرح إحدى وسائلهم لتحقيقها، حيث "كانت جمعية العلماء والمدارس الإصلاحية يقيمون مسرحيات

¹ دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقاربة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحياً، ص 267-268.

² المرجع نفسه، ص 268. نقلًا عن: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 229.

³ دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 267.

⁴ المرجع نفسه، ص 268.

⁵ أحمد منور، مسرح أحمد رضا حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1989، ص 58.

نشر الدّعوة الإصلاحية والمحافظة على القيم الدينية والأخلاقية والثقافية، وكانوا يستعملون المسرحيات كسلاح من أسلحة الإيقاظ الشّعبي".¹

وبعد الخمسينيات انتقل مسرح الجمعية نقلة نوعية إذ مال إلى الاحتراف حيث " تكونت فرق مسرحية تمارس نشاطها بعيداً عن المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، فبدأ أعضاءها بالاحتكاك بالمسرح المصري عن طريق البعثات للتدريب على التمثيل، والإخراج المسرحيين، وبعد رجوع فرقة "هواة التمثيل العربي" من مصر قدّموا عدّة عروض في مختلف المسارح الوطنية ومسارح الدول المجاورة كتونس ولibia، ومن جملة ما عرضوا حسب ما جاء في مذكرات مؤسس الفرقة "محمد الطاهر فضلاء" عنترة بن شداد، صلاح الدين الأيوبي، أبو الطيب المنبي، ومسرحية الصحراء".²

فمسرحية الصحراء مثلاً لقيت احتفاء كبيراً واهتمامًا لدى الصحافة ولفتت انتباه الكثير من النقاد وهي على حدّ تعبير أبي القاسم سعد الله "رواية تمثل كفاح ليبيا ضد إيطاليا". وقد قام فيها محمد الطاهر فضلاء بالدور الرئيسي وامتدح على أدائه الجيد. وقد سبق له أن مثلّ رواية أخرى بنجاح وهي (ليلي بنت الكرامة) ورواية (بطل قريش) التي تحمل رسائل للشعب عن تراثه وانتمائه. كما سبق له أن مثلّ المولد للجيلاوي".³

وهكذا وجدنا مسرح الجمعية يتّطور في الممارسة والأداء وينتقل من الفضاء المدرسي المحصر إلى الفضاء الشعبي العام المفتوح ، بل أكثر من ذلك إلى الفضاء الدولي الأكثر انفتاحاً، وهو في كل ذلك لا يستغني عن نزعته الإصلاحية المتأتية من ثوابت الجمعية التي لا تريم ولا تحيد عنها، إلى أن تخطّ جذوته فاسحا المجال إلى مسرح النّضال الذي فرضته الظروف السياسية وهبّ ثورة الجزائرية المندلعة في مطلع 1954 ، وهو مسرح كانت تقوده "فرقة جبهة التحرير الوطنيّة" التي أخضعت كل المسرحيين من كتاب وممثلين لخدمة القضية الكبرى، وهي تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي".⁴

هذه أهم المخطّات التي مرّ بها مسرح الجمعية منذ نشأته الأولى إلى خفوت بريقه مع بداية ثورة التحرير الكبرى، وقد أشرنا إلى أبرز أعلامه من شيوخ الجمعية وتلاميذهم وإلى أهم مدوناتهم، ووجدنا أنه مسرح إصلاحي مدرسي، يغرس من المبادئ الكبرى للجمعية وأهدافها ومرجعياتها التي سنّبنها في العنصر اللاحق .

3. مراجعاته:

يعد المسرح من أهمّ الفنون الجميلة التي تحدّب النفس، وتؤدي المسرحية أمام جمهور المشاهدين على خشبة، تمزج بين الكلمة وحركات الجسد، وتستهدف من خلال تأديتها غaiات مختلفة، وقد كانت الغاية التربوية الإصلاحية أهمّ غaiات مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ اصطدامه الفعلي سنة 1938 ، وبتحلّ هذه الغاية من خلال مرجعياته، فقد جأ أعلام المسرح الإصلاحي إلى مصادررين ومرجعيين أساسين استلهما من خاللهمما مواضع أعمالهم، وكرّسوا من خاللهمما أهدافهم ومراميهم التربوية فكان هذان المرجعان كالتالي:

¹ مباركة مسعودي، المسرح الجزائري: التأسيس والترايادة، مجلة البدر، الجلد 9، العدد 12، 2017، ص 691.

² دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، ص 268.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ج 10، طبعة خاصة، 2007، ص 332.

⁴ دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 269.

1.3 المرجع التاريخي:

ويعدّ التاريخ أهمّ مصدر استقى منهم مسرحيو الجمعية أعمالهم، ويظهر ذلك من خلال عناوين كثيرة وشحّوا بها منجزاتهم، سواء كانت تحمل أسماء شخصيات تاريخية أو أحداثاً تاريخية كبيرة، في التاريخ العربي والإسلامي وحتى العالمي " وليس صعباً أو مستحيلاً أن يكون التاريخ إلهاماً وتجربة ومصدراً لعمل مسرحيٍ ما، كما يحدث مع التجربة الواقعية المعروفة، ولعلّ الماضي يكون مناسباً أكثر لممارسة العمل الأدبي المسرحي، كلّما كان أكثر طواعية بين يدي المؤلّف، بسبب أنّ أحدات الماضي قد تبلورت، على مرّ الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابسات والتفاصيل التي ليست بذري بال، من حيث الدلالات التي يتوصّلها الكاتب للوصول إلى المدف، الذي يرمي إليه من عمله الفتي".¹

ولا مناص من جلوء كتاب مسرح الجمعية إلى التاريخ واستلهام شخصياته التّارِيَّة النّاصعة في ميادين البطولة والنّضال ففكرسوا وجودها في منجزاتهم، فقد وجدناهم منذ تأسيس الجمعية مستميتين في الدفاع عن هوية الأمة التي أراد العدو مسخها بأفانين مختلفة من التّحرير والطّمس، فكان التاريخ أبرز ركائزهم، يقول الأستاذ مصطفى رمضاني: "لقد فطن رواد المسرح العربي منذ البداية إلى غرية الشّكل المسرحي الغربي، كما فطنوا إلى أنّ المستعمر يسعى إلى فرض ثقافته لطمس كلّ ثقافة وطنية، لذلك جاؤوا إلى البحث عن هويتهم وتميّزهم، فكان التّراث هو المصدر الشّامل الذي وجدوا فيه ضالتهم، لأنّه يمثل مقومات الأمة واستمرارية تميّزها".² ولذلك وجدناهم رجعوا إلى التاريخ وفتّشوا بين دفاتر كتبه عن المصايب المشرقة التي بإمكانها أن تثير ظلام ليلهم الدّامس الذي أشاعه الاستعمار فاستلهموا هاته الشخصيات ورسموها في مسرحهم الإصلاحي المقاوم بطرائق فنية مشرقة، فأعادوا بذلك "بعث التاريخ الأصيل، سواء كان عربياً إسلامياً أو مغربياً أمازيغياً إفريقياً، والتّعرّيف بشخصياته ليكونوا قدوة للأجيال، فحدثت لهذه الغاية أقلامها من أدباء وشعراء وفنانيين ومسرحيين، فكان العمل على جبهتين: جبهة تحفي التاريخ الجزائري بطريقة علمية أكاديمية بعيدة عن المصادر الغربية وتشويهات المستشرقين، وهذا ما قام به المؤرّخ مبارك الميلي في كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وعبد الرحمن الجيلالي في مؤلفه "تاريخ الجزائر العام"، والجبهة الثانية وظفت التاريخ العربي الإسلامي والمغربي في الأنشطة الثقافية ومنها المسرح".³

وقد كان الاشتغال على الجانب التاريخي في المسرح الإصلاحي مجالاً خصباً فتعددت بذلك "المحاور التي عبرّ من خلالها كتاب الجمعية في مسرحياتهم التاريخية، فهناك المحور الديني الذي عمل أصحابه على إثارة العقائد (المولد النبوي الشريف والمولد والختناء وبلال)، وكذلك المحور التاريخي العاطفي الذي جمعوا من خلاله بين التاريخ والعاطفة (ملكة غزّاطة وصناعة البرامكة)، وأخرون جاؤوا إلى الصّراعات الموجودة فيه بين القوى الظالمة والشعوب المظلومة المكافحة (حنبل وعبد الحميد بن باديس وأوثان الاستعمار)، وكلّ هذا من أجل توصيل أفكارهم للمتلقي والتأثير فيه".⁴

وقد تعددت المصادر التاريخية التي استمدّت منها المسرحية التاريخية وجودها عند الإصلاحيين، ويمكن أن نحصرها في ثلاثة مصادر أساسية:

¹ أحسن تليلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، ص 45.

² جمیل حمداوی، توظیف التراث فی المسرح العربي، دار الریف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور – تطوان، المملكة المغربية، ط 1، 2019، ص 23.

³ دین الهنّانی أَحْمَدُ، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيّاً، ص 266-267.

⁴ سمية بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، 2020/2019، ص 195.

1.1.3 المصدر العربي الإسلامي:

وهو من أهم المصادر، ذلك أنّ التاريخ العربي الإسلامي يحفظ لنا الكثير من الدروس والعبر في طياته، لشخصيات كانت علامات فارقة في مسار التاريخ، ويزمكناها أن تصير رموزاً ومرجعاً يحتذى به على مر العصور ولذلك "ابجه بعض الكتاب الجزائريين في مجال المسرح إلى التاريخ العربي الإسلامي لأنّه ثري بالبطولات، مليء بالمواقف الجريئة للملوك والأمراء والقادة والشعراء، سواء ما كان من العصر الجاهلي أو الإسلامي، يستلهمون المادة الأساسية لإحياء الأمل في التفوس الضعيفة، فكان الأبطال المختارون نماذج تمثل الشجاعة والأنفة والجهاد والصبر وغيرها من المكارم العربية..."¹

وفي هذا المجال يمكن ذكر العديد من العناوين، ولعلّ أبرزها مسرحية بلال بن رياح لحمد العيد آل خليفة، هاته المسرحية الرائدة التي رسم فيها كاتبها شخصية هذا الصحابي في صبرها وتحمّلها للتعذيب وثباتها على كلمة الحق برغم المعاناة، وما تحمله هذه الشخصية المسرحية من دلالة رمزية عن معاناة الجزائريين تحت وطأة الاستعمار الغاشم وصبرهم على شتى أنواع التنكيل فداء للوطن، ويمكن الإشارة إلى أعمال أخرى كثيرة مثل: "الخنساء التي ترمز إلى الصبر والتضحية، وصلاح الدين الأيوبي الذي يرمز إلى الجهاد والعفة والتسامح والثبات على الحق، وطارق بن زياد الذي يوحى اسمه بالصمود وعدم اليأس، والمواجهة رغم قلة العدد، وعنترة بن شداد الذي ارتبط اسمه بالشجاعة والدفاع عن الحرية".²

2.1.3 المصدر المغاربي:

لم يكن تاريخ المغرب العربي بمعزل عن مضامين المسرحيات التاريخية الإصلاحية، إذ لا يمكن عزل الأدب عموماً عن البيئة التاريخية التي ولد فيها، ولأنّ التاريخ المغربي بدوره حافل برموز تاريخية تحمل معاني البطولة والنضال "حاول بعض الكتاب الجزائريين في المسرح إحياء تاريخ المنطقة المغاربية، وتعريف المتفرق الجزائري بالشخصيات التاريخية لهذه المنطقة التي يجهل عنها الكثير، نظراً لطمس الحقيقة من قبل المستعمر من جهة، وتزييفها من جهة أخرى".³

من أشهر الكتاب الذين استحضروا شخصيات من التاريخ المغربي القديم، تحمل معاني الكفاح والبطولة هو أحمد توفيق المدين في مسرحيته الشهيرة "حنبل" التي كتبها سنة 1948، فهي مسرحية ترسم صورة وتحكي سيرة عن هذا القائد العظيم الذي "حقق انتصارات على روما وكبح مطامعها بشجاعة نادرة، فهي تلقي الضوء على فترة تاريخية امتازت بصراع بين القرطاجيين وهم سكان تونس القديم، وبين روما التي كانت تمثل إحدى القوتين الكبيرتين في التاريخ قبل الإسلام، كما كانت قرطاجنة تمثل قوة الحضارة والتقدم العمري، فحاولت روما إخضاعها بالقوة حتى انتهى الأمر بحرق هذه المدينة العظيمة".⁴

¹ دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 270.

² المرجع نفسه، ص 270.

³ المرجع نفسه، ص 270.

⁴ سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 34، نقلًا عن: عبد الله الركيبي، تطور النشر الحديث 1830-1974، ص 221.

وقد جاءت هذه المسرحية متفردةً أسلوبًا ولغة وحبكة وأداء، وعن فرادتها ونجاحها يتحدث العلامة سعد الدين بن أبي شنب – بعد سنوات قليلة من ظهورها – فيقول: "فهذا أحمد توفيق المدني قد أخرج للمسرح منذ ستين أو ثلاث سنين مأساة عنوانها حبقل، قد كتب لها نجاح باهر، سواء في نشرها وفي تمثيلها، ولا غرو فقد كانت ذات قيمة فنية، وجمال وقوة ...".¹

ويمكن أن نذكر في هذا السياق كذلك مسرحية "الصحراء" لمؤلفها محمد الطاهر فضلاء، وهي مسرحية تصوّر نضال الشعب الليبي بقيادة عمر المختار ضدّ الاحتلال الإيطالي.

3.1.3 المصدر الأجنبي:

و هذا المصدر دعت إليه الحاجة الفنية فحين "تنوع الجمهور، وتنوعت أدواقه، بدأ المسرح الجزائري الإصلاحي بالخروج عن المصادرين السابقين – العربي الإسلامي والمغربي – إلى مجال الاقتباس من الأعمال الأجنبية ... وتم اختيار الموضع والمسرحيات الأجنبية بشروط، منها أن تخدم هذه العروض الخطوط العريضة التي سطرتها الحركة الإصلاحية، وهي تربية الناشئة على المبادئ والقيم التربوية والثورية، فلا يأخذون منها إلا ما ينسجم مع ماضينا وتاريخنا وحضارتنا وعقيدتنا وقويمتنا".²

وفي هذا السياق يمكن الاستشهاد بعنوان العديد من المسرحيات و"أول عمل مسرحي حدث فيه الاقتباس من المسرح الأجنبي هو مسرحية "مونيصرات" التي اقتبسها فراح محمد سنة 1947 من المؤلف "إمانويل روبلس" تعالج هذه المسرحية حدثاً تاريخياً يدور حول الغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية، ويفضح فيها الممارسات الوحشية التي كان يمارسها الجنود الإسبان على السكان الأصليين، كما يظهر المقاومة الكبيرة التي أبدتها هؤلاء السكان في التصدي لهذا الغزو، إنّ هذه المسرحية تحمل دلالات سياسية واضحة، دفعت السلطات الفرنسية إلى توقيف العرض".³

ويعدّ محمد الطاهر فضلاء من أحسن من برع في اقتباس المسرحيات الأجنبية وإعادة طبعها بطبع خاص يراعي أهداف ومرامي الجمعية التربوية ويسعى إلى الارتفاع بالذوق العام لجمهور المتلقين كما يستعملها في "ثبت بعض المبادئ ومحاربة ظواهر سلبية في المجتمع الجزائري، فقد أخذ المسرحية التاريخية "سيرانو دو بيرجراك" من قصة الكاتب الفرنسي روستان المعروفة بـ(الشاعر البطل)"، هذه الشخصية التاريخية التي عرفت بالشجاعة والتسامح، والفروسية النبيلة، رغم عيده الخلقي المتمثل في كبر أنه، لقد استعمل محمد الطاهر فضلاء هذا الإطار التاريخي ليعرف المتفرجين على المبادئ التي تصنع الرجل، وهي أخلاقه وبنائه وشجاعته لا صفاته الفизiologicalية".⁴

وهكذا تنوّعت المصادر التاريخية التي استلهم منها رواد المسرح الإصلاحي منجزاتهم بين الإطار المحلي والعالمي، فكانت كلّها تصب في خدمة الغايات الكبرى والأهداف التربوية والإصلاحية التي سطّرها رجال الجمعية وشيوخها منذ تأسيسها أول مرّة.

2.3 المرجع الاجتماعي :

يعدّ المجتمع كذلك ركيزة أساسية يلتجأ إليها الكتاب المسرحيون ويستقون منه مادتهم، وذلك لما يعتمل فيه من ظواهر ومظاهر مختلفة، سواء كانت سلبية أو إيجابية تتطلب التنشئة والمعالجة والتحليل على مستويات مختلفة، وهو ما لجأ إليه بطبيعة الحال الكتاب

¹ سعد الدين بن أبي شنب، اللغة العربية والأدب العربي في الجزائر، مجلة الأديب، ع 1، 1 يناير 1954، ص 73.

² دين المتناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، ص 271.

³ المرجع نفسه، ص 271/272، نقلًا عن: نور الدين عمرون، مسار المسرح الجزائري إلى سنة 2000، ص 111.

⁴ المرجع نفسه، ص 272.

المسرحيون من رجال جمعية العلماء، فتصدوا للآفات الاجتماعية المختلفة التي سادت إبان الفترة الاستعمارية في مسرحياتهم بصبغة فنية أدبية، فعرّضوا لمشاكل اجتماعية مختلفة بنبرة إصلاحية، مثل مشكلة البطالة، آفة شرب الخمر، المظاهر الكاذبة، الشعوذة والسحر ... وغيرها، فنشأت بذلك في مسار تطور مسرح الجمعية ما يسمى بالمسرحية الاجتماعية " وهي نوع يتناول الكتاب من خلالها مواضيع من عمق المجتمع، كيف لا يكتب عنه وهو واحد من أبنائه يتحاوب وينفعل مع محاسنه وينتقد مشكلاته ، وهذا ما ينطبق على الأدب الذي يتأثر و يؤثر في المجتمع، فهو مصدر لغته وموضوعاته، وله يكتب محاولاً إحداث تغيير إيجابي في مظاهره السلبية، وذلك بنشر العلم والمعرفة والدعوة إلى العدل والإخاء والتضامن وغيرها من القيم ...".¹

ومن أحسن من مثل هذا الاتجاه من كتاب مسرح الإصلاح نجد أحمد رضا حورو، فهو رائد المسرحية الاجتماعية في الجزائر بامتياز ، وينجلي ذلك واضحاً من خلال عناوين مسرحياته مثل: أدباء المظهر، الواهم، سي عاشر والتمدن، البخيل وغيرها.

ففي مسرحية " أدباء المظهر" نجده يعالج موضوعاً اجتماعياً " يدور حول انصراف الناس عن الأدب الحقيقى الذى يتطلب من صاحبه جهد سنوات طويلة في الدراسة والتحصيل وتعلّقهم، نظراً لطابع السرعة التي يتميّز بها العصر بأدب المظهر ، وهو ذلك الأدب الذي ينجلي كما جاء على لسان مراد أحد شخصيات المسرحية (في الملابس، في المشي، في الجلوس)".²

ويقوم كذلك بالتصدي للزيف الاجتماعي ومحاربة المفاهيم المغلوبة من خلال مسرحية " سي عاشر والتمدن" وهي مسرحية " مقتبسة من مسرحية (الثري التبلي) لمولير وهي ملهاة راقصة على نفس المنوال – الإيمان بالمفاهيم الخاطئة- وبعد تغير مفهومي الأدب والأدباء، جاء هنا دور مفهوم التمدن لدى عاشر، ذلك الريفي الذي قدم إلى المدينة وانبهر بها، فاعتقد أن التمدن هو تقليد أهلها في الملبس والأكل والخلافات وغيرها".³

وهكذا نجد أن الظاهرة الاجتماعية قد شكلت بدورها مادة خصبة نهل منها الكتاب المسرحيون موضوعات مسرحياتهم، حيث تم ذلك وفق معالجة فنية ذات صبغة إصلاحية تربوية .

4. أهدافه:

سبق وأن أشرنا إلى أن مسرح الجمعية كان مسرحاً إصلاحياً، فقد حملت مضامين منجزاته أهدافاً تربوية تتماشى والغايات الكبرى لمشروع الجمعية الثقافي، فنشطت هذا النوع من المسرح نشاطاً واسعاً وكان " المدف منه إرجاع الشخصية العربية الإسلامية إلى مصادرها، ومنابعها الأصلية، هذا النشاط من الجوانب الأدبية والفنية، وأخضعها مقاييس حددتها أيدىبيات الحركة الإصلاحية ولكن الشيء الذي ميز هذا النشاط الإصلاحي هو اهتمام علمائها بالمسرح، واتخاده وسيلة تربوية ناجحة لمخاطبة المتلقين الجزائريين".⁴

¹ سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 55.

² أحمد منور، مسرح أحمد رضا حورو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، ص 59.

³ سميرة بن جامع، المرجع السابق، ص 60.

⁴ دين المنانى أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقاربة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، ص 265.

فعلمون أن المستعمر الفرنسي انتهج في الجزائر جملة سياسات حاول من خلالها محو الهوية الجزائرية والعبث بمقوماتها من خلال التجنيد والتنصير والفرنسنة، فقادت الحركة الإصلاحية بالوقوف في وجه هذه السياسات والتصدي لها " وما كان أمام الكاتب المسرحي سوى أن يتمسك بشخصيته العربية أمام المستعمر ".¹

إن التأمل لمنجزات هذا المسرح يلاحظ منذ أول نظرة أنه يستهدف التربية والتعليم والتنقيف والإصلاح، هذه الغايات السامية التي دعت إليها الحاجة الملحة في ظل استعمار غاشم كان يستهدف مقومات الهوية بالدرجة الأولى رامياً مسخها وتذويتها، وإذا تتبعنا مسار " الحركة الإصلاحية منذ نشأتها، نلاحظ أن موقفها من المسرح نابع من سياستها، ومبادئها التي بنيت عليها، وهي المحافظة على الدين، وإحيائه في النقوس، بعث اللغة العربية، الاعتزاز بالوطن، ونشر الأخلاق السامية، فكل ما يتناقض مع هذه المبادئ مرفوض ... ".²

ولأن اللّغة العربية هي عنوان هوية الأمة الجزائرية ولسانها المعبر عن حالمها، فقد رام المستدرم الفرنسي القضاء عليها وتشويهها، وحارها بصنوف شتى ولذلك سعى أعلام المسرح الإصلاحي من كتاب الجمعية إلى " جعل المسرح وسيلة لإحياء اللغة العربية، والابتعاد على العامية الممسوحة، وقد ذكر هذا الشرط في رسالة بعث بها الأستاذ "الهاشمي التيجاني" أحد محري جريدة البصائر إلى محمد الطاهر فضلاء جاء فيها: " أقدمت بشجاعة على اقتحام العقبة ... بمحاولتك المشكورة في إحياء لغتنا العزيزة على أخشاب المسرح، ونبذ تلك الطمطائية الممسوحة التي تشوب لغة الأمة الجزائرية ".³

فالأستاذ محمد الطاهر فضلاء اعتبر من أهم المدافعين عن الكتابة المسرحية باللغة العربية الفصيحة، فهي عنوان هوية الأمة وعنوان مجدها، بل إنه عدد من أكثر المتعصبين لها، حيث يقول: " ومن مشاكل المسرح المفتعلة قضية ما أسموه اللغة المسرحية، هذه مشكلة خلقها الاستعمار وأكّدتها الجهل، لا في الجزائر فقط، ولكن في كلّ وطن نكب باستعمار أوربي حاقد على الإسلام ولغته وحاقد على اللغة العربية التي أشّعت الثقافة والحضارة على يدها قرونا متطرفة من الزّمن... ".⁴

فمسألة اللغة في المسرح شكّلت قضية محورية جدلية في الكتابة المسرحية إبان الفترة الاستعمارية، ففي الوقت الذي راح فيه العديد من رواد المسرح الجزائري يكتبون مسرحيات ذات طابع اجتماعي فكاهي بلغة عامية، حرص أعلام الجمعية على كتابة مسرحياتهم بلغة عربية فصيحة.

وعموما يمكن تلخيص أهداف مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في النقاط التالية:

- إحياء الشخصية العربية الإسلامية.
- إحياء التاريخ القومي العربي الإسلامي.
- محاربة الآفات الاجتماعية التي زرعها الاستعمار.
- الحفاظ على مقومات الهوية خاصة اللغة العربية والارتفاع بالذوق العام لجمهور المتلقين.

¹ سيد علي إسماعيل، أثر التراث العربي في المسرح المصري المعاصر، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، دط، 2017/01/26، ص40.

² دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 265.

³ المرجع نفسه، ص 267.

⁴ خناش فؤاد، طبيعة النص المسرحي الإذاعي بالجزائر محمد الطاهر فضلاء ألمودجا، رسالة ماجستير، جامعة وهران 1 (أحمد بن بلة)، كلية الآداب والفنون، قسم الفنون، 2014-2015، ص130. نقل عن: محمد الطاهر فضلاء، المسرح تاريخنا ... ونضالا، ص40.

- الدعوة إلى المقاومة والنضال بطريقة رمزية فنية .

5. خاتمة:

يمكّنا أن نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها في مقالنا هذا فيما يلي :

- بدأ مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إصلاحياً مقاوماً من خلال مسرحية "بلال بن رياح" الصادرة سنة 1938م، لمحمد العيد آل خليفة، والتي اعتبرت النواة الأولى لهذا المسرح باستلهامها للتاريخ العربي الإسلامي.
- كانت الغاية التربوية الإصلاحية أبرز مرامي مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فاستلهما روادها ما دّرّهم المسرحية من مرجعين هامين هما: المرجع التاريخي من خلال اقتباس سيرة شخصيات بارزة أو أحداث تاريخية مفصلية من ثلاثة مصادر هي: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغربي، المصدر الأجنبي، إضافة إلى المرجع الاجتماعي كون هذا المسرح حمل على عاتقه مهمة تغيير العديد من الانحرافات والآفات التي عبّرت بالمجتمع الجزائري والتي عمل الاحتلال الفرنسي إلى استشرائها وتغذيتها كشرب الخمر، والبطالة والسحر والشعوذة وغيرها من صنوف البدع والخرافات.
- أخضع أعلام مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحاربهم المسرحية إلى مقاييس حددتها أبجديات وأهداف الحركة الإصلاحية، التي كانت ترمي إلى المحافظة على مقومات الأمة من التحرير والتزييف والطمس، فعمدت إلى إحياء الشخصية العربية ورسم التماذج المثالية المشرقة قصد الاقتداء بها، وإحياء التاريخ القومي العربي الإسلامي، والدعوة إلى المقاومة والكفاح بطريقة جمالية فنية.

6. قائمة المراجع:

المراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ج 10، طبعة خاصة، 2007.
- 2- أحسن تيلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، أطروحة دكتوراه، جامعة متوري – قسنطينة-، 2010/2009.
- 3- أحمد متوري، مسرح أحمد رضا حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، رسالة ماجистير، جامعة الجزائر، 1989.
- 4- بن داود أحمد، دور المسرح الجزائري في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي 1926-1954، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2008-2009.
- 5- جميل حداوي، توظيف التراث في المسرح العربي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور – طوان، المملكة المغربية، ط 1، 2019.
- 6- سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، 2020/2019.
- 7- سيد علي إسماعيل، أثر التراث العربي في المسرح المصري المعاصر، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، دط، 2017/01/26.
- 8- مخناش فؤاد، طبيعة النص المسرحي الإذاعي بالجزائر محمد الطاهر فضلاء أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة وهران 1 (أحمد بن بلة)، كلية الآداب والفنون، قسم الفنون، 2014-2015.

المقالات:

- 1- دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقاربة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ألمانيا، العدد 4، جانفي 2019.
- 2- سعد الدين بن أبي شنب، اللغة العربية والأدب العربي في الجزائر، مجلة الأديب، ع 1، 1 يناير 1954.
- 3- مباركة مسعودي، المسرح الجزائري: التأسيس والريادة، مجلة البدر، المجلد 9، العدد 12، 2017.